الفصل السابع
الجنس والأسطورة

ينقسم اليهود فى الوقت الحالى إلى فريقين رئيسيين: السفرديم والأشكنازيم. والسفرديم هم سلالة اليهود الذين عاشوا فى أسبانيا منذ القدم حتى طردوا فى نهاية القرن الخامس عشر واستقروا فى بلاد تحف بالبحر المتوسط وفى البلقان، ثم فى أوربا الغربية على نطاق أضيق.. وكانوا يتكلمون بلهجة أسبانية عبرية هى اللادينو، وقد احتفظوا بتقاليدهم وشعائرهم الدينية، وبلغ عدد السفرديم فى العقد السادس من القرن العشرين حوالى ٥٠٠,٠٠٠ يهودى .

أما الأشكنازيم فيقدرون فى الوقت الحالى باحد عشر مليونا تقريبًا، ومن ثم فإننا إذا قلنا «اليهود» فإننا نعنى بصفة عامة اليهود الأشكنازية. على أن هذا المصطلح يؤدى إلى اللبس لأن كلمة أشكناز كانت فى كتب الربانيين فى القرون الوسطى تطلق على يهود ألمانيا، وهذا يسهم فى تأييد الأسطورة التى تقول بان الشعب اليهودى الحالى أصله من بلاد الراين. على أننا لا نجد مصطلحا آخر يدل على أغلبية السفرديم من اليهود المعاصرين .

ويجب أن نذكر ان كلمة الاشكناز في التوراة تشير إلى قوم يعيشون في جوار جبل أراراط وأرمينية، ويرد الاسم في سفر التكوين، الإصحاح العاشر، الآية ٣، وفي سفر الأخبار الأولى، الإصحاح الأول، الآية الثالثة على اعتبار أنه أحد أبناء كومر الذى كان ابنا ليافث. وأشكناز أيضًا هو أخو تكرمه (ابن أخى ماجوج) الذى زعم الخزر في رواية الملك يوسف أنه جدهم. والذى يزيد المشكلة تعقيدًا هو أن الاسم أشكناز يرد أيضًا في سفر أرميا، الإصحاح ٥١، الآية ٢٧ حيث يدعو هذا النبى قومه وخلفاءهم أن يهبّوا ويدمروا بابل. وقد فسر هذه الفقرة سعديا جاعون الزعيم الروحى المشهور لليهود الشرقيين في القرن العاشر الميلادى، فقال إنها نبوءة تتعلق بزمانه، فبابل ترمز إلى خلافة بغداد والأشكناز الذين قُدّر لهم أن يهاجموا هذه الخلافة هم الخزر أنفسهم أو هم قبيلة حليفة لهم.

ومن ثم قال الأستاذ بولياك: إن بعض علماء من اليهود الخزر سموا أنفسهم اشكنازيم حين هاجروا إلى بولندة، وهذا لا يدل على شيء وإنما يعقد المسالة أكثر وأكثر.

***

وقد لخص الأستاذ رافائيل باتاى مسالة خلافية مريرة عريقة القدم فيما يأتى:

«لقد اتضح مما كشفه علم الإنسان الخلقى أنه لا يوجد جنس يهودى، وهذا يخالف الرأى الشائع. وقياس الجماعات اليهودية في

عدة أنحاء من العالم من حيث السلالة والتكوين الخلقى يدل على أنها تخالف الواحدة الأخرى فيما يتعلق بجميع الخصائص الخلقية الهامة أى القامة والوزن ولون البشرة، ومقياس الرأس ومقياس الوجه، وفصائل الدم.. إلخ».

وهذا الرأى هو بلا شك القول المسلم به اليوم بين علماء علم الإنسان والمؤرخين. زد على ذلك أن هناك تشابهًا عامًا بين اليهود وغير اليهود الذين ينزل اليهود عندهم أكثر من التشابه بين اليهود المقيمين فى البلاد المختلفة. على أن من المفارقات الاعتقاد الشائع بأن اليهود، أو بعض أصناف منهم، يمكن أن تتعرف عليهم لأول وهلة، وهو قول يجب ألا نستبعده استبعادًا تامًا.

على أن الأستاذ كوماس كتب فى سلسلة الكتيبات التى يصدرها اليونسكو أن اليهود، بالرغم من الرأى الشائع، لا يجمع بينهم من حيث السلالة جنس واحد، ذلك أن هجراتهم الدائمة وصلاتهم بالأمم والأقوام المتنوعة أشد التنوع سواء برغمهم أم بإرادتهم قد أدت إلى قيام تصاهر بينهم وبين هؤلاء حتى أصبح الشعب الإسرائيلى المزعوم يمكن أن يزودنا بنماذج عن خلائق يتميز بها كل شعب.

***

ونحن نتساءل كيف حصلت هذه الظاهرة المزدوجة، وهى اختلاف اليهود فى الظواهر الجسمانية واتفاقهم الخلقى مع الأمم

التى تستضيفهم والإجابة الظاهرة التى يجيب بها علماء السلالات عن هذا السؤال هى صلة الرحم المقترنة بمقتضيات الاختيار.

وقد كتب الأستاذ فيشبرغ فى ذلك يقول: «إن هذا هو حقا النقطة الجوهرية فى المبحث السلالى لليهود، ترى هل هم جنس نقى خالص بدلته مؤثرات البيئة، أو تراهم فرقة دينية مكونة من عناصر جنسية مختلفة تاتت بالتبشير الدينى والتصاهر فى أثناء الهجرة إلى شتى أنحاء العالم؟» وهو يترك قراءة على يقين من الجواب فيردف: ويظهر أولا من شواهد التوراة والمأثورات أن تكوين قبيلة إسرائيل حتى فى أوائل هذا التكوين كان ينطوى على عناصر جنسية مختلفة.. إذ نجد فى آسيا الصغرى وسورية وفلسطين فى ذلك الوقت عدة أجناس هى : العموريون، وكانوا شقرًا مستطيلى الرءوس طوالا، والحيثيون، وهم جنس داكن البشرة، الراجح أنه من الصنف المغولى، والكوشيون وهم جنس زنجى. وغير ذلك من الأجناس الكثيرة. وقد تم التصاهر بين العبرانيين القدماء وبين هذه الأقوام جميعًا كما يتبين من كثير من آيات التوراة.

ولعل الأنبياء كانوا يحذرون من الزواج ببنات من جنس غريب إلا أن الإسرائيليين مختلطى الأنساب لم ينصاعوا لذلك، فقد تزوج الأب الأول إبراهيم هاجر وهى مصرية، وتزوج يوسف اسناث ولم تكن مصرية فحسب بل ابنة كاهن أيضًا، وتزوج موسى امرأة من مدين، زد على ذلك أن التوراة نفسها التى حرمت الزواج بغير

اليهوديات، أباحت الزواج بالأسيرات أيام الحروب. وصفوة القول أن بنى إسرائيل فى أوائل التيه كانوا جنسًا مهجنًا غاية التهجين. وهكذا كانت حال معظم الأمم فى التاريخ، وهذه حقيقة لم تكن لتقتضى التنويه لولا تواتر أسطورة القبيلة الواردة فى التوراة وأنها احتفظت بنقائها الجنسى خلال العصور.

وثمة مصدر آخر هام للتصاهر هو تلك الأعداد الحاشدة من الشعوب متباينة الأجناس التى دخلت فى اليهودية، وهذه الأعداد شاهدة على غيرة اليهود الأولين الدينية فى نشر الدعوة اليهودية، ويتمثل ذلك فى الفلاشة سود الخلقة، وهم من الأحباش، ويهود كاى فنغ الصينيين. ويهود اليمن وبشرتهم فى لون الزيتون، وقبائل البربر اليهودية فى الصحراء الذين يشبهون الطوارق، ثم يسير بنا الزمن حتى نبلغ مثلنا المنشود وهو الخزر.

وبلغت غيرة اليهود فى نشر الدعوة إلى دينهم أوجها أيام الإمبراطورية الرومانية، بين سقوط الدولة اليهودية وقيام المسيحية. فقد دخلت أسر كثيرة من أشراف إيطاليا فى اليهودية، وكذلك تحول عدد كبير من الإغريق إلى هذا الدين، وكان فريق لا بأس به من سكان أنطاكية على اليهودية. وقد لقى القديس بولص كثيرًا من المتهودين فى رحلاته ما بين أثينا وآسية الصغرى، وظل الناس يدخلون فى اليهودية قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان، وقد أبطأ ظهور المسيحية من هذا التحول وقضى قيام الأحياء اليهودية

المنعزلة (الغيتو) على ذلك، ومع هذا فقد ظل التحول قائمًا قبل أن تطبق أحكام الأحياء اليهودية بصراحة فى القرن السادس عشر، وشاهد ذلك تواتر الزيجات المختلطة بالرغم من القيود والتحذيرات التى فرضتها المجالس الكنسية المختلفة .

وكان الحاجز الوحيد الفعال فى هذا الشأن هو أسوار الحى اليهودى، فلما تداعت هذه الأسوار بدأت الزيجات المختلطة فى الظهور. وتزايدت سرعتها تزايدًا حتى إننا نجد فى ألمانيا ما بين سنتى ١٩٢١ و ١٩٢٥ أن كل مائة زيجة شارك فيها اليهود منها ٤٢ زيجة مختلطة.

أما اليهود الخلص، أى السفرديم، فإن إقامتهم فى أسبانيا أكثر من ألف سنة تركت طابعها الذى لا يمحى عليهم وعلى من استضافوهم. وقد كتب مؤرخ الحضارة الكبير توينبى فى ذلك يقول: «لقد توافرت لنا جميع الأسباب التى تحملنا على الاعتقاد بأن فى أسبانيا والبرتغال أثرًا قويًا من دماء هؤلاء التهودين يجرى فى دماء سكان شبة جزيرة أيبيريا وخاصة الطبقتين العليا والمتوسطة. ومع ذلك فإن أدق علماء التحليل النفسى ملاحظة يجد صعوبة فى تمييز سكان هذه الجزيرة الذين يرتد نسبهم إلى أصول يهودية حين تتوافر له نماذج من أفراد هاتين الطبقتين فى أسبانيا والبرتغال».

وثمة صنف آخر نشأ من حوادث محزنة هى الاختيار القائم على الاغتصاب، وهذا الصنف أيضًا له تاريخ طويل بدأ فى فلسطين. فقد جاء فى الرواية مثلا أن رجلا يدعى يهوذا بن حزقيال اعترض على زواج ابنه بامرأة ليست من «نسل إبراهيم» فرد عليه صديقه قائلا «وكيف نعلم على اليقين أننا أنفسنا لم ننحدر من صلب كفار اغتصبوا عذارى صهيون أيام حصار أورشليم» .

***

ونعود بعد ذلك إلى مفارقة هى أن كثيرًا من الناس الذين لا يدخلون فى زمرة علماء الأجناس ولا المناهضين للسامية، يؤمنون بانهم قادرون على أن يميزوا اليهودى من أول نظرة. ونحن نتساءل كيف يتأتى هذا إذا كان اليهود قبيلا مُهجّنا اشد التهجين كما يتبين لنا من التاريخ وعلم الإنسان؟

ونظن أن أرنست رنان قد أجاب على جانب من هذا السؤال حين كتب سنة ١٨٨٢ قائلا: «ليس هناك صنف يهودى وإنما هناك أصناف من اليهود». ومن ثم فإن صنف اليهودى الذى تستطيع أن تميزه «من أول نظرة» إنما هو صنف من أصناف، ولا ينتمى إلى هذا الصنف الخاص إلا فريق صغير فى عداد اليهود الذين يبلغون أربعة عشر مليوناً من البشر، كما أن هؤلاء الذين يظهر أنهم ينتمون إليه ليسوا فى جميع الأحوال من اليهود. ومن السمات البارزة، لغة ومجازا، التى يقال إنها تميز الصنف الخاص المعهود هى

الأنف الذى يوصف بأوصاف مختلفة فيقال أنف سامى أقنى، معقوف أو يشبه «منقار النسر». ومع ذلك فإن من العجيب أن الأستاذ فيشبرج قد لاحظ أن من بين ٢٨٣٦ يهوديا من أهل نيويورك وجد ٤١٦ منهم فقط ذوى أنف معقوف.

وثمة مصدر آخر للخلط والالتباس هو الصعوبة البالغة التى نصادفها حين نميز الخصائص الموروثة من الخصائص التى تكتسب من الوسط الاجتماعى وغير ذلك من عوامل البيئة، وقد صادفنا ذلك حين ناقشنا القامة من حيث هى مقياس سلالى. على أن أثر العوامل الاجتماعية فى علم الفراسة والسلوك، والحديث والايماءات واللباس يعمل عمله فى التمييز المعقد الدقيق لليهود. ولعل اللباس وقصة الشعر هما أوضح هذه العوامل. فأنت إذا رأيت شخصا سوالفه مسترسلة كالبريمة، وعلى رأسه قلنسوة، وقبعة سوداء عريضة الحوافى وقد ارتدى قفطانا أسود طويلا فإنك تدرك لأول وهلة أنه يهودى أصيل.

وهذا يتمثل فى كثير من الشعوب التى نميزها بلباسها وطريقة كلامها وسلوكها فالفرنسى مثلا يستطيع أن يميز الإنجليزى من أول نظرة والعكس صحيح .

والملاحظ أيضا أن المرء إذا هاجر من وطنه إلى وطن آخر فإنه إذا عاد إلى وطنه لاحظ عليه قومه أنه اكتسب طبائع جديدة وسلوكا جديدا ولباسا آخر غير ما ألفوه وتعودوا عليه.

وهذا ينطبق أيضًا على اليهود .

وأى بحث يتناول التراث البيولوجى والاجتماعى لليهود يبدو فيه أثر الأحياء اليهودية المنعزلة كبيرًا. فيهود أوربا وامريكا وشمالى افريقية هم أبناء هذه الأحياء، وأيًا كان اصلهم الجغرافى فإنهم يعيشون بين أسوار حيهم (الغيتو) حيثما كانوا وفى أى بلد فى البيئة المعهودة نفسها، وقد خضعوا عدة قرون لنفس المؤثرات المؤدية للتكوين وللتغيير.

ونحن نستطيع بالاعتماد على نظرة عالم السلالات، أن نميز بين ثلاثة مؤثرات كبيرة: التصاهر، والتشرد السلالى، والاختيار.

ولعل التصاهر قد لعب فى حقب مختلفة دورًا كبيرًا فى التاريخ السلالى لليهود يماثل دور نظيره وهو التهجين. فمنذ أيام التوراة إلى العهد الذى فرض فيه على اليهود الانعزال، ثم فى العصور الحديثة، كان الاختيار هو السائد. وبين العهدين امتدت حقبة ما بين ثلاثة وخمسة قرون من العزلة والاختيار انحصر فيه التزاوج بين هذه الجماعة الصغيرة المنعزلة. والتصاهر يحمل فى طياته خطر ردة عوامل الوراثة الوبيلة المكبوتة فتنطلق محدثة آثارها المدمرة.

وهذا هو السبب فيما عرف عن اليهود مدة طويلة من غلبة البلاهة عليهم، وقد حدث ذلك فى أغلب الظن نتيجة لتصاهرهم فى دائرة محصورة وليس نتيجة لخاصية فيهم تعود إلى الجنس السامى كما أكد بعض علماء علم الإنسان .

وثمة عامل آخر كان له أثر عميق فى سكان الأحياء اليهودية وهو التشرد السلالى، الذى يشير إلى فقدان الخلال الموروثة لدى سكان قليلى العدد معزولين عن غيرهم. والتشرد السلالى يمكن أن يحدث تغيرات كبيرة فى الخصائص الوراثية للجماعات الصغيرة.

ولا شك أن «ضواغط الاختيار» المؤثرة فى نطاق أسوار الأحياء اليهودية بلغت من الشدة حدًا يندر أن نجد له نظيرًا فى التاريخ. ذلك أن اليهود كانوا محجوبين عن الزراعة ومن ثم تحضروا تمامًا وتمركزوا فى المدن أو فى «الاشتتلات» ثم ازدحمت بهم هذه ازدحامًا . ومن هنا فتكت بهم الأوبئة فى القرون الوسطى أكثر مما فتكت بغيرهم من السكان ، وهذا الفتك الذريع أكسبهم بمرور الزمن مناعة حتى أن سلالتهم من المحدثين قد ندر بينهم الدرن وطالت أعمارهم بالنسبة لغيرهم. وكانت الضواغط المعادية المحيطة بأحياء اليهود الخاصة تتراوح بين الازدراء المشوب بالبرود وأعمال العنف القائمة على القسوة والتنكيل، ولاشك أن معيشة اليهود عدة قرون فى مثل هذه الظروف قد ساعدت على بقاء أكثرهم فصاحة وألينهم عريكة وأرحبهم عقولا، أى الصنف المأثور عن الحى اليهودى (الغيتو).

أما كون هذه الصفات النفسية تقوم على الميول الوراثية التى تعمل أساليب الاختيار عملها فيها أو أن هذه الصفات تنتقل بالوراثة الاجتماعية التى ينشأ فيها الطفل فمسألة لا تزال يدور حولها

الخلاف الشديد بين علماء علم الإنسان. والتزام اليهودى الذى يعيش فى حيه المنعزل بالحرص وشدة الوعى والاستمساك باخلاق معينة مثل الامتناع عن شرب الخمر مثلا يجعله يراقب ساخرًا ما يجرى عليه الناس خارج حيه من سُكْر وعربدة ومباذل، فقد ورث أبًا عن جد هذه الاستقامة حتى تلاشت من ذاكرته قيود هذا الحى المنعزل وتأقلم شيئًا فشيئًا بغيره، وخاصة فى البلاد الأنجلوساكسونية. وهكذا انقلب الامتناع عن الخمر كغيره من الأخلاق اليهودية الأخرى الكثيرة، فأصبح مسألة تقوم على الوراثة الاجتماعية وليست على الوراثة البيولوجية.

***

ثم نأتى أخيرًا إلى مسألة أخرى متطورة وهى الاختيار الجنسى، وهى مسألة لعلها أسهمت فى نشأة الصفات التى درجنا على أن نعدها الصفات اليهودية المأثورة.

والظاهر أن الأستاذ ريبلى هو أول من ذهب إلى هذا بقوله، «اليهودى هو - أساسا - مختلط السلالة. وهو من جهة أخرى الوريث الشرعى لجميع اليهود من حيث الاختيار، وقد أثر هذا فى كل تفصيلات حياته. فلماذا لا يؤثر أيضًا فى المثل الأعلى الذى يرسمه لجمال الجسم؟ ولم لا يؤثر فى اختيارات اليهود الجنسية كما يتحكم فى اختيارهم فى الزواج؟ ومن ثم فإن نتائج ذلك تزداد عن طريق الوراثة» .

ولم يبحث ريبلى فى «مثال الجمال الجسمانى» فى الحى اليهودى المنعزل، إلا أن فيشبرج قد فعل وخرج من بحثه بمذهب يجتذب الناس، قال : «إن الشخص القوى مفتول العضل فى نظر اليهودى الأصيل فى شرقى أوربا هو عيصو Esau. وكان الابن الأمثل ليعقوب خلال القرون السابقة لمنتصف القرن التاسع عشر «شابًا ناعمًا» أجل شابًا رقيقًا كانما هو مصاب بفقر الدم، واهن ذابل ترتسم على محياه البلبلة والحيرة. كله مخ وقد تجرد من العضل ومظاهر القوة. ثم يضيف فيشبرج «وفى أوربا الغربية وأمريكا الآن نزعة قوية إلى عكس ذلك. فكثير من اليهود يعتزون بانهم لا يبدو عليهم أنهم يهود. وإذا أخذنا هذا فى الاعتبار فإنه يجب علينا أن نعترف بأنه قد لا يكون للمحيا المائور لليهود أى مستقبل مشرق، وخاصة بين شباب الإسرائيليين».

الخلاصة :

حاولنا فى الباب الأول من الكتاب أن نتتبع تاريخ إمبراطورية الخزر معتمدين على المصادر القليلة التى بقيت لنا.

وفى الباب الثانى، جمعنا الشواهد التاريخية التى تدل على أن قوام الشعب اليهودى الشرقى، ومن ثم العالمى، ينتمى إلى أصل خزرى تركى أكثر من انتمائه إلى أصل سامىّ .

وفى هذا الفصل - الأخير - حاولنا أن نبين أن الشواهد المنتقاة من علم الإنسان تؤيد التاريخ فى دحض الاعتقاد الشائع بقيام جنس يهودى ينحدر من القبيلة المذكورة فى التوراة.

والحق أن هناك طائفتين من الحقائق تشجب هذا الاعتقاد من وجهة نظر علم الإنسان وهما: الاختلاف الواسع بين اليهود من حيث الخصائص الجسمانية، ومشابهتهم للسكان غير اليهود الذين يعيشون بين ظهرانيهم..

وهذا التفسير البيولوجى الواضح لهاتين الظاهرتين هو الاختيار الذى اتخذ صورًا شتى فى مواقف تاريخية مختلفة، وهذه الصور هى: التصاهر، والغيرة الدينية واسعة النطاق، والاغتصاب الذى هو من لوازم الحرب.

والاعتقاد بوجود صنف يهودى متميز، بالرغم من البيانات الإحصائية المتاحة، يقوم إلى حد كبير على تصورات مختلفة خاطئة، فهو يتجاهل أن السمات التى تعد يهودية «مُثلَى» بالقياس إلى شعوب الشمال، تنقطع عن الظهور فى بيئة البحر المتوسط، ثم إن هذا الاعتقاد قد غاب عنه أثر المحيط الاجتماعى فى التركيب الجسمانى لليهود وفى محياهم وهو يخلط بين الوراثة البيولوجية، والوراثة الاجتماعية.

***

وكل عامل من هذه العوامل قد أسهم فى ظهور الصنف المأثور عن الحى اليهودى، وقد خف أثر ذلك شيئا فشيئا فى الحقبة التى تلت الحى اليهودى المنعزل. اما التركيب السلالى والمظهر الجسمانى لليهود فى الحقبة التى سبقت قيام هذا الحى فلا نكاد نعرف عنهما شيئا. وفى راى الأستاذ كويستلر أن هذا «الصنف الأصلى» يغلب عليه العنصر التركى الذى امتزج إلى حد لا نعلمه بأهل فلسطين القدماء وغير ذلك من العناصر. وكذلك فإننا لا نستطيع أن نقول اى هذه السمات المأثورة مثل «الأنف اليهودى» يعد ثمرة للاختيار الجنسى فى نطاق الحى اليهودى المنعزل، أو مظهرًا لمؤثر وراثى قبلىٌ ملح معلوم. وظاهرة الأنف «المعقوف» منتشرة بين شعوب القوقاز، وغير منتشرة بين البدو الساميين، وهذا دليل آخر على ما كان «للقبيلة الثالثة عشرة» من شأن غلاب فى التاريخ البيولوجى لليهود.